سُلطة النص وسُلطة الواقع

(مشكلة البنوية بين العلمانيين و الإسلاميين)

سأل أحدهم: هل هناك فرق بين الجزار وبين الجراح؟، أليس كِلا الرجلين يمسك بآلة حادة ويُجيد غرسها في الجسد؟ أليس هذا وذاك لديهما القدرة على إسالة الدماء؟ فلماذا لا نسمح للجزار بممارسة الطب؟ ولماذا نضيع كل هذه السنوات وننفق كل هذه النفقات من أجل تخريج طبيب جراح؟

فرد عليه صاحبه: وما وظيفتك أنت؟

قال: أنا جزار وأرغب في أن أكون جراحًا، فلدينا أزمة في بيع اللحوم.

يبدو أن المشكلة الآن هي أن جزاري العلمانية والمشروع الإسلامي لديهم رغبة ملحة وشهوة عارمة في ممارسة طب الجراحة.

إن القاسم المشترك بين الفريقين والذي كان سببًا في إنتاج أزمات الأمة، هو أن كليهما تعاملوا مع الأحداث بمنطق البنيويين في تعاملهم مع النص الأدبي، فالنص في المنظور البنيوي نص مغلق ومعزول عن الواقع الذي أنشأه ولهذا فهم لا يلتفتون إلى الظروف

المحيطة بالنص، ولكن كل تركيزهم يوجَّه إلى بنية النص، وإلى شبكة العلاقات الداخلية التي تحكمه، وكانت النتيجة الحتمية هي حالة الجمود والتبلد والشلل التي أصابت العقل العربي والذائقة العربية.

استعار العلمانيون النموذج الغربي المغلق، دون أن يقيموا علاقة إبداعية وحوارية معه قائمة على الفعل والتفاعل، وكان المشهد الببغائي التلقيني هو أقصى ما فعله المتغربون.

وعلى الجانب الآخر لم يستطع الإسلاميون التفريق بين وظيفة أصول الفقه والفقه في التعامل مع الواقع، فدارس الأصول لا يتعامل إلا مع النص المكتوب، ولا ينظر إلى الواقع بحال من الأحوال، فالنص لديه مغلق ووظيفته فقط بحث شبكة العلاقات بين وحداته وبناه الصغرى والكبرى، بينما الفقيه يتعامل مع نص الواقع ونص الشرع، ولا يفصل بينهما، بل يعتبر الواقع هو الجزء غير المرئي من النص، لكن الذي حدث أن الفقيه صار أصوليًا، ونتج عن ذلك أزمة تُشبه الأزمة التي أنتجها العلمانيون. ولذلك إذا سُئِلَ دارس الأصول عن حكم إقامة الحدود على المسلمين في بلاد الغرب، نظر أولاً في النص المكتوب ثم يجيب: تلك حدود الله فلا تعتدوها، ويقول أيضًا: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله. أما إذا سُئل الفقيه فإنه ينظر إلى نص الواقع أولاً ثم يجيب: لا تُقام الحدود على المسلمين في غير بلادهم. وباختصار شديد

فالأصولي يبدأ من النص وينتهي إليه، ولا يلتفت إلى الواقع، بينما الفقيه يبدأ من الواقع وينتهي بالنص.

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم أكثر وعيًا بالشرع والواقع معًا من هؤلاء المتطفلين على مائدة النص، وكان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه هو النموذج الفذ المتفرد، ويمكن أن نجزم بأن الدولة الإسلامية في عهده حققت ما لم تحققه كل العصور الإسلامية مجتمعة.

obeikan.com